بسم الله الرحمن الرحيم

٢٦ – سورة الشعراء

هي مكية، إلا قوله تعالى[1] «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ» إلى آخرها. وقوله[2] «أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَـٰٓءِيلَ» فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة ، رضى الله عنهم .

وقال الداني: رُوِيَ بسند صحيح أنها نزلت في شاعرين تهاجيا في الجاهلية ،مع كل واحد منهم جماعة . فالسورة على هذا كلها مكية . انتهى .

وقال المهايمي : سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء ، لأن الشاعر ، إن كان كاذبا فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية ، وإن كان صادقاً لا يتصور منه الافتراء على الله تعالى ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ، انتهى .

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها ، لبيان أنهم في معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه ، عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردًّا لفريتهم.

ولما كان لفظ (الشعراء) عامًّا ، جاز حمله على ما حكوه، لشموله له ، لا أنه نزل فيه خاصة دون غيره . وسيأتي ، إن شاء الله تعالى ، إيضاح ذلك . وهي مائتان وسبع وعشرون آية .

قال ابن كثير : وقع في تفسير مالك المرويّ عنه ، تسميتها (الجامعة) .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ ـ ٢٢٧] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (طسٓمٓ)

« طسٓمٓ » سبق فى سورة البقرة الأقوال فى هذه الفواتح ، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة ، فمحله الرفع على أنه خبر لمحذوف ، وهو أظهر من رفعه على الابتداء . أو النصب بتقدير : اقرأ ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ)

« تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ » الإشارة إلى السورة ، وما فيها من معنى البعد للتفخيم ، ومحله الرفع على الابتداء ، خبره ما بعده أو بدل مما قبله . والمراد بـ(الكتاب) القرآن . و(المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه . من (أبان) بمعنى بان ـ أو المبين للحق من الباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ)

« لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ » أى قاتل « نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ » أى لعدم إيمانهم . و(لعل) للإشفاق . أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ)

« إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً » أى ملجئة لهم إلى الإيمان ، قاسرة عليه « فَظَلَّتْ

أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ » أى منقادين، والجملة مستأنفة لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور ، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما ، فلا وجه للطمع فيه ، والتألم من فواته . قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥] (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

«وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ »أى مكذبين، استهزاء وإصرارا على ما كانوا عليه من الكفر . وتقدم نظير الآية فى أول سورة الأنبياء ، وتحقيق معنى قوله تعالى (محدث) فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

«فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه ، وبقاء أيامه. وفيه وعيد لهم بحلول الذل بهم، ونزول الصَّغار وقتئذ بدارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

«أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »أى صنف مرضىّ كثير المنافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » لصرفهم اختيارهم إلى جانب الكفر ، وعدم تدبرهم فى هذه الآيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » أى فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع ، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم ، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه ، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[١١] (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ)

[١٢] (قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)

[١٣] (وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى » أى فى أداء الرسالة ، فى بسطة من المقال « فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ » أى ليوازرنى ويشدّ به عضدى . والمفعول محذوف ، أى ملكا أو جبريل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)

[١٥] (قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ، إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ)

« وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ » وهو قتل القبطيّ ، المبسوط فى غير هذه السورة « فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا » أى لا تخف إنك من الآمنين « فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ » مزيد تسلية لهما ، بكمال الحفظ والنصرة .

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم، ليمد أولياءه ، ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة فى الوعيد بالإعانة . انتهى .

ولو قيل هو كناية عن ذلك، كان أولى. لجواز بقاء المعنى الحقيقيّ معها، وهو هنا كذلك. فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

[١٩] (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ » يعنى قتل القبطيّ . « وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى بنعمتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

« قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أى الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل . أو الذاهبين عن صواب الحلم والعفو والدفع بالأحسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » أى تقتلونى على القتل الخطأ ، فنجانى الله منكم ، وزادنى إنعاماً « فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً » أى حكمة أو نبوة « وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى لإبطال دعواك الربوبية ، واستئصال شُبَه ما عليه قومك من الوثنية . وطلب إرسال قومى إلى مواطنهم الأصلية ، وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » إبطال لمنته عليه فى التربية ، ببيان أنها فى الحقيقة نقمة . لأنه كان اتخذ بنى إسرائيل ؛ عبيداً مسخرين فى شئونه ، مذللين لأموره ، مقهورين لعسفه . وموسى عليه السلام ، وإن لم ينله من ذلك ما نالهم ، إلا أنه لما كان منهم ، فكأنه وصل إليه ، وحلَّ به ، كما قيل (وظلم الجار إذلال المجير) أى لا يفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، وما أنا إلا عضو منهم . وفى فحواها تقريعه بالكبرياء المتناهية ، والقسوة البالغة ، والسلطة الغالية التى من ورائها الفرج القريب ، والمخرج العجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٢٤] (قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ)

[٢٥] (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ » أى لهذا النبأ العجيب ، وهو توحيد المعبود. وإنما عدّه جديراً بأن يتعجبوا منه، لأنهم، على ماحققه المؤرخون، غلوا فى عبادة الأصنام وتعديد الآلهة غلوًّا أربوا على كل من سواهم فى الضلال . فكانوا يسجدون للشمس والقمر ، والنجوم ، والأشخاص البشرية ، والحيوانات ، حتى الهوامّ ، وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

[٢٨] (قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » أى لكونه يدعو إلى خلاف ماعقل عن الآباء .

« قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ » أى شيئاً ما، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لايشتبه على من له عقل فى الجملة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون .

تنبيه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة، لايقر بخالق، ولا يعترف بمعبود.

لظاهر قوله[1] (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .

قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن مقرًّا بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر . انتهى .

وقدمنا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين . وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) أى مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقى سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ، من طلب الاكتناه ، وتعجبه من جوابه ، ثم رميه بالجنون ، ثانياً ، لعدوله عن الكنه إلى الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته فى ربوبيته التى ادعاها موسى ، وأن تعجبه لما شاهد من الجد فى الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمته ، ويغمز جبروته ؛ وهذا هو الذى أذهب إليه ، فإن القوم بمعزل عن أن يعجبوا لكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ، إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا يأباه . وقد عول عليه كثير من أهل النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازىّ : السؤال بـ(ما) طلب لتعريف حقيقة الشىء . وتعريف حقيقة الشىء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشىء من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتركب من الداخل والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن المعرف معلوم قبل المعرف . فلو عرف الشىء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمور الداخلية فيها ، فهاهنا فى حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمور الداخلة ، لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فما ليس بممكن يستحيل أن

(١) [٢٨ / القصص / ٣٨] .

يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية. وأظهر آثار ذات واجب الوجود،هو هذا العالم المحسوس ، وهو السموٰات والأرض ومابينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون (وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما . فأما قوله (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) فمعناه إن كنتم موقنين باستنادهذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره . وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السموٰات والأرض ومابينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب

ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى، يعنى أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبنى بالفاعلية والمؤثرية .

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية، وذلك لأنا إذا قلنا فى الشيء أنه الذى يلزمه اللازم الفلانىّ ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرّفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه الملزوميّة والأول محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه ، وهو محال . والثانى محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلانىّ ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة، لأنه لا يمتنع فى العقل اشتراك

الماهيات المختلفة فى لوازم متساوية. فثبت أن التعريف بالوصف الخارجىّ، لا يفيد معرفة نفس الحقيقة، فلم يكن كونه ربًّا للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) فأجاب موسى عليه السلام بأن قال (رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ) وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها، فهى غنية عن الخالق والمؤثر. ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحال وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعنى المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه .

فقال موسى عليه السلام (رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثانى ، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمر ظاهر فى أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله (إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) فكأنه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت، لأنك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته. فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقتة ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته.

ثم قال الرازىّ : وقد بينا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله تعالى[1] :(وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ

(١) [٦ / الأنعام / ١٨] .

فَوْقَ عِبَادِهِ) أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هى ، هى غير معقولة للبشر . انتهى .

وقال الإمام ابن حزم فى (المِلَل والنِّحَل) فى الكلام فى المائية : ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له . وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو، إلى أن الله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره. قال ابن حزم : والذى نقول به ، وبالله تعالى التوفيق ، أن له مائية هى إنيّته نفسها، وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو البارئ ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام ؛ إذ سأله فرعون (ومارب العالمين) ؟ ونقول أنه لا جواب هٰهنا لا فى علم الله تعالى ولا عندنا، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً تامًّا لانقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

ثم قال : هٰهنا نقف ولا نعلم أكثر . ولا هٰهنا أيضا شىء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .

قال تعالى [1]: (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْماً) إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منفىّ عن الله عز وجل ، وواجب فى غيره ، لوقوع العدد المحاط به فى أعراض كل ما دونه تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصح يقيناً أننا نعلم الله عز وجل حقًّا ، ولا نحيط به علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ)

[٣٠] (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ)

[٣١] (قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

(١) [٢٠ / طه / ١١٠] .

[٣٢] (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)

[٣٣] (وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ)

[٣٤] (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ)

[٣٥] (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

[٣٦] (قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ)

[٣٧] (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)

[٣٨] (فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[٣٩] (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ)

« قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » قرئ بهمز وبدونه ، وهما لغتان . يقال أرجأته وأرجيته إذا أخرته . والمعنى أخرهما ومناظرتهما لوقت اجتماع السحرة « وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ » أى شُرَطا يحشرون السحرة ، أى يجمعونهم عندك « يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ » أى لرؤية ما يعارض معجزة موسى . وكان خامَرَ فؤادهم عجب منها واندهاش . والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ)

[٤١] (فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ)

[٤٢] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

[٤٣] (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ)

[٤٤] (فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ)

[٤٥] (فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

[٤٦] (فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ)

« لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ *فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ* فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ* فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » أى تبتلع ما موّهوا به إفكا وزورا « فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ » أى على وجوههم منقادين له بالإيمان ، لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر . وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له، وأن التبحر فى كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية، فإن هؤلاء السحرة، لتبحرهم فى علم السحر ، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام ، وأنه معجزة . فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان ، لفرقهم بين المعجزة والسحر . قاله القاضى والشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[٤٨] ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

[٤٩] ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[٥٠] ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

[٥١] ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

« قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ » أى فعلمكم شيئاً دون شيء ، ولذلك غلبكم. أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه . أراد به التلبيس على قومه ؛ كى لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حقّ .

« فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أى جانبين متخالفين . « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ » أى لا ضرر علينا فى ذلك ، بل لنا فيه أعظم النفع ، لأنا بفعلك هذا وصبرنا عليه ، شهادة على حقيّته ، إلى ثوابه ورحمته راجعون ، فننقلب خير منقلب ، شهداء سعداء « إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن » أى لأن « كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى من أظهر الإيمان كفاحا ، مجاهرة بالحق بلا تقية . ثم أشار تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيحائه إليه . وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه الآيات البينات ثم ندم عليه ، فأتاه الإذن الإلهىّ به ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ)

«وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ» أى سِرْ بهم ليلًا، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لابد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تتقدمونه ولا يدركم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ)

« فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ » أى حين أخبر بسراهم « فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ » أى جامعين لعسكره ، قائلين ما يقلل به الأعداء فى أعين الجنود :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[٥٥] (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ)

[٥٦] (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ)

[٥٧] (فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٨] (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ » أى بنى إسرائيل الخارجين «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ» أى يفعلون أفعالًا تغيظنا وتضيق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ » أى من مكرهم وسعيهم بالفساد فى الأرض « فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » يعنى : المنازل الحسنة والمجالس البهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« كَذَٰلِكَ » إشارة إلى مصدر ، أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، فهو فى محل نصب صفة لمصدر مقدر ، أو هو خبر لمحذوف ، أى الأمر كذلك .

قال الشهاب : وإذا قدر (الأمر كذلك) فالمراد تقريره وتحقيقه ، والجملة معترضة حينئذ كالتى بعدها . « وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » . قال الشهاب : هو استعارة ؛ أى ملكناها لهم تمليك الإرث بعد زمان . وكأن العاقبة ، لما كانت لهم ، صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ)

« فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ » أى لحقوهم وقت شروق الشمس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[٦٢] (قَالَ كَلَّآ ، إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ)

[٦٣] (فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ، فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ)

« فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ » أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر « قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى للحقون « قَالَ كَلَّآ » أى لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم « إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » أى لطريق النجاة منهم . « فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ

اُضْرِب بِّعَصَاكَ اُلْبَحْرَ فَاُنفَلَقَ » أى فضربه فانفلق « فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَاُلطَّوْدِ اُلْعَظِيمِ » أى كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ اُلْأَخَرِينَ)

[٦٥] (وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ أَجْمَعِينَ)

[٦٦] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا اُلْأَخَرِينَ)

[٦٧] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[٦٨] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اُلْعَزِيزُ اُلرَّحِيمُ)

« وَأَزْلَفْنَا » أى قرّبنا « ثَمَّ » أى حيث انفلق البحر « اُلْأَخَرِينَ » يعنى قوم فرعون ، أى قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بنى إسرائيل « وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ أَجْمَعِينَ » أى بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا . « ثُمَّ أَغْرَقْنَا اُلْأَخَرِينَ » أى بإطباقه عليهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً » أى لعبرة « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » أى مع مشاهدة هذه الآية العظمى التى توجب تصديقه بعدها فى كل ماجاء به . منهم من بقى على كفره كبقية القبط . ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقترح كبعض بنى إسرائيل . وفيه تسلية للنبىّ صلوات الله عليه . ووعد له ووعيد لمن عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَاُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ)

[٧٠] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ)

[٧١] (قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ)

[٧٢] (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

[٧٣] (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

[٧٤] (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على مشركى العرب « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ » أى ماالذى تدعونه وتلجئون إليه . وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم ، أن مايعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شىء « قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ » أى مقيمين على عبادتها لانتخطاها إلى غيرها . « قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » أى مثل عبادتنا يعبدون ، فقلدناهم .

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمعزل مماذكر من السمع والمنفعة والمضرّة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أن لاسندلهم سوى التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٧٦] (أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ)

[٧٧] (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[٧٨] (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

[٧٩] (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

[٨٠] (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[٨١] (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

« قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ » أى أفأبصرتم ، أو أتأملتم فعلتم ما كنتم تعبدونه أنتم وسلفكم . فإنهم بغضائى « إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى لكن رب العالمين ليس كذلك ، فإنه ولي فى الدنيا والآخرة ، لا أعبد غيره. ثم برهن على موجب قصر عبادته عليه تعالى بقوله « ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ » أى إلى كل ما يهمنى من أمور الدين والدنيا ، فإنه تعالى وحده يهدى كلا لما خلق له . والموصول صفة ا (رب) وجعلهُ مبتدأ وما بعده خبراً ـ غيرُ حقيق بجزالة التنزيل . قاله أبو السعود .

« وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ » أى يرزقنى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن، وأنزل الماء وأحيى به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسىّ كثيراً .

«وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» أى إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما قدره من الأسباب الموصلة إليه . وإنما نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهما منه ، لمراعاة حسن الأدب معه تعالى . بتخصيصه بنسبة الشفاء الذى هو نعمة ظاهرة إليه تعالى كما قال الخضر[1] (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) وقال[2] (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا) وكقول الجن فى آية[3] (أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ولأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم .

«وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ» فإنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، لا يقدر على ذلك أحد سواه . فإن قيل إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه تعالى إلى نفسه، فما الفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض فى مقتضى الأدب ؟ أجيب كما فى (الانتصاف) : بأن الموت

---

(١) [١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [١٨ / الكهف / ٨٢] . (٣) [٧٢/الجن/١٠].

قدعلم به بأنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عامٌّ لا يخص ، ولا كذلك المرض فكم من معافى منه قد بغته الموت ؛ فالتأسى بعموم الموت لعله يُسقط أثر كونه بلاء، فيسوغ فى الأدب نسبته إلى الله تعالى . وأما المرض ، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققاً . فاقتضى العلوّ فى الأدب مع الله تعالى، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه، باعتبار ذلك السبب الذى لا يخلو منه . ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض ، أخبر عن وقوعه بتًّا وجزماً ، لأنه أمر لابد منه . وأما المرض ، فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقروناً بشرط إذا فقال (وَإِذَا مَرِضْتُ) وكان ممكناً أن يقول والذى يمرضنى فيشفينى ، كما فى غيره. فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة ، إلا لذلك . انتهى .

قال أبو السعود : وأما الإماتة ، فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء ، بدءاً وإعادة ، وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى (وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) على أن الموت ، لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية ، بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٢] (وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ)

«وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى الجزاء . وخطيئته ما كان يراها هو صلوات الله عليه ويعدّها بالنسبة لمقامه الكريم .

قال أبو السعود : ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغائر، وتنبيهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها، فإن حاله عليه السلام، مع كونه فى طاعة الله تعالى وعبادته، فى الغاية القاصية، حيث كانت بتلك المثابة . فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر، وفنون المعاصى والخطايا؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر فى الدنيا، لأن أثرها يومئذ يتبيّن ، ولأن فى ذلك تهويلًا له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه ، إن لم تغفر. وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه ، حمله ذلك على مناجاته، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٣] (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

[٨٤] (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » أى حكمة ، أو حكما بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبيّ ذو حكم وحكمة. « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى وفقنى لأنتظم فى سلكهم، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكمال الخلق . «وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» أى ذكراً جميلًا بعدى ، أذكر به ويُقتدى بى فى الخير كما قال تعالى[(١)]: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .

قال القتيبيّ : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تكنى العرب به عن الكلمة . وعليها حمل قول الأعشى[(٢)] :

إنِّى أتتنى لسانٌ لا أُسَرُّ بها من عُلْوَ ، لاعَجَبٌ منها ولاسَخَرُ

وجوّز أن يكون المعنى: واجعل لى صادقاً من ذريتى، يجدّد أصل دينى ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد. وهو النبيّ ﷺ . ولذا قال صلى الله عليه وسلم[(٣)] (أنا دعوة

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٨ ـ ١١٠] .

(٢) هو أعشى باهلة . والبيت مطلع قصيدته ، يرثى بها أخاه لأمه ، المنتشر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) عن العرباض بن سارية ، بهذا النص : قال رسول الله ﷺ: إنى عبد الله لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك. دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين .

أبى إبراهيم) ، فالكلام بتقدير مضاف. أى صاحب لسان صدق. أو مجاز بإطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ)

[٨٦] (وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ)

« وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ » أى بهدايته وتوفيقه للإيمان . كما يلوح به تعليله بقوله « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أى طريق الحق .

قال الحافظ ابن كثير . قوله (وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ) الخ.. كقوله[1]:(رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ) وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى[2] (وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ) إلى قوله (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ)وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال تعالى[3] (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ) إلى قوله (وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

[٨٨] (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[٨٩] (إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ » أى لاتلحق بى ذلًا وهواناً يومئذ « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية فى القوة . فإن الأمر ثمة ليس كما يعهدون

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] . (٣) [الممتحنة / ٥].

فى الدنيا ، بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والخصال المذمومة والملكات المشئومة .

قال الزمخشرىّ :

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم . ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع . وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة ، فضلاً أن يكون حجة . ثم صور المسألة فى نفسه[1] دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا ، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه ، إلى حين وفاته ، مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته . ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين . ثم وصله بذكر يوم القيامة ، وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

ثم بين سبحانه أن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليها ويغتبطون

---

(١) أى بقوله (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى) على معنى أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدوّ وهو الشيطان . فاجتنبتها وآثرت عبادة مَن الخير كله فى يده . وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه . فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله . وأبعث على الاستماع منه . ولو قال (فإنهم عدوٌّ لكم) لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى ، وبهذه الآيات الكريمة وأمثالها ردّ على أبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمىّ فى زعمه أن القرآن خال من التخلص ، وهو زعم فاسد . لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، بلطيفة تلائم بين الكلام الذى أخرج منه والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن مواضع كثيرة من ذلك ، كما بسطه ابن الأثير فى (المثل السائر) فراجعه . اهـ مؤلفه .

بأنهم المحشورون إليها . والنار تكون بارزة مشكوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٩١] (وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

[٩٢] (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٩٣] (مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ)

[٩٤] (فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ)

« وأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ » أى الضالّين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى . وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره . « وَقِيلَ لَهُمْ » توبيخاً على شركهم « أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ » أى يدفعون العذاب عنكم ، أو يدفعونه عن أنفسهم ، لأنهم وآلهتهم وقود النار. وهو قوله تعالى « فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ » أى الآلهة « وَٱلْغَاوُونَ » أى وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم .

قال الزمخشرىّ : والكبكبة تكرير الكب ـ وهو الإلقاء على الوجه ـ جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)

[٩٦] (قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)

[٩٧] (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)

[٩٨] (إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَجُنُودُ إِبْلِيسَ » أى متبعوه من العصاة «أَجْمَعُونَ* قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ* تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ »أى فى العبادة، مع أنكم أعجز مخلوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ)

« وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ »أى رؤساؤهم، كما فى آية[1] (رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ)

[١٠١] (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)

« فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »أى من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء. لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله . وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . فما أغنوا عنهم شيئاً . كما قال تعالى[2] (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) قال الزمخشرىّ: و(الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذى يهمه ما يهمك. أو من (الحامة) بمعنى الخاصة . وهو الصديق الخاص . وفيه معنى الحدة والسخونة . كأنه يحتدّ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

ويحمى ، لحماية خليله ورعايته ، والقيام بمهماته . وهذا هو الذى قيـــل (إنه أعز من بيض الأنوق) وإنه اسم بلا مسمى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١٠٣] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٠٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم « لَآيَةً » أى لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر. وتقدم ماقاله الزمخشرىّ فى بديع سياقها « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم » أى أكثر قوم إبراهيم « مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » أى بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[١٠٦] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٠٧] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٠٨] (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٠٩] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[١١٠] (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١١١] (قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ » لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل ، لاتفاقهم فى أصول الشرائع . وهو نفى الشريك وإثبات البارئ وتوحيده. أو لأن المراد بالجمع الواحد « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ » يعنون من كان وضيع النسب قليل النصيب من الدنيا . فإن الشرف لديهم بالمال والنشب. والحسب والنسب، لابالأخلاق الفاضلة. والملكات الكاملة . التى تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه . ثم اعتناقه والمحافظة عليه . وأكثر ما تكون الأخلاق فى مثل المستضعفين . إذا قام عليهم ناصح أمين . إذ لامال يطغيهم . ولا جاه يلهيهم . وذلك من العناية الربانية فيهم .

قال الزمخشرىّ : وهكذا كانت قريش تقول فى أصحاب رسول ﷺ . وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم . ألا ترى إلى هرقل حين سأل أباسفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال (ضعفاء الناس) قال (مازالت أتباع الأنبياء كذلك) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة . أى وما علىّ إلا الظاهر والله يتولى السرائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ)

[١١٤] (وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١١٥] (إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[١١٦] (قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ)

[١١٧] (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ)

[١١٨] (فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى » أى ماحسابهم على أعمالهم ، إلا على ربى المطلع على ضمائرهم «لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ » أى المشتومين أو المرميين بالحجارة « قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا » أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا .

قال الزمخشرىّ : الفتاحة : الحكومة . والفتاح : الحاكم . لأنه يفتح المستغلق . كما سمى فيصلا لأنه يفصل بين الخصومات . وفى (التهذيب) : الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون إليك . قال الأشعر الجُعْفِىّ(١) :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عمراً رسولًا   فإنى عن فُتَاحَتِكُمْ غَنِىُّ

« وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ)

[١٢٠] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ)

[١٢١] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٣٨ من المجلد الثانى (طبعة بيروت)

[١٢٢] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٢٣] (كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٢٥] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٢٦] (فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٢٧] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[١٢٨] (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ)

« فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ وَفِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً » أى فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ » أى مكان مرتفع ، بكسر الراء وفتحها « ءَايَةً » أى علامة « تَعْبَثُونَ » أى ببنائها لا للحاجة إليها. بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهـذا أنكر عليهم ذلك . لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان فى غير فائدة . واشتغال بما هم فى غنى عنه . وبما فى الشغف به انصراف عن الجد فى العمل ، وصرف للأموال فى غير ما خلقت له، من النظر للنفس والأهل والدين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

« وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ » أى منازل وقصورا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » أى راجين الخلود

فى الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار، والتباهى بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدّين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

«وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » أى تأخذون بالعنف والشدة ، كبرا وعتوًّا . يقال (بطش به) أى أخذه بالعنف والسطوة ، وتناوله بشدة عند الصولة ، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٣٢] (وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)

[١٣٣] (أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ)

[١٣٤] (وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

« فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » أى فيما آمركم به من التوبة والإيمان «وَأَطِيعُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ » أى فاشكروا نعماءه ، وارعوا بتقواه آلاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن لم تقوموا بواجب شكرها «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »أى فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ)

« قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ » أى : فإنا لن نرعوى عما نحن عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)

« إِنْ هَٰذَا » أى ما هذا الذى نحن عليه « إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أى عادتهم . كانوا يدينون به ويعتقدونه . فنحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذى جئتنا به إلا عادة الأولين . كانوا يلقفون مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٨] (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

[١٣٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٤٠] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٤١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)

[١٤٢] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٤٣] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٤٤] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٤٥] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[١٤٦] (أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ)

« وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » أى على ما نحن عليه من الأعمال « فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ » أى بريح صرصر « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ » أى من الموت والزوال والعذاب .

قال الزمخشرىّ: يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لا يُزالون عنه. وأن يكون تذكيراً بالنعمة فى تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدعة. وقوله تعالى (فِى مَا هَـٰهُنَآ) أى فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم . ثم فسره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ)

[١٤٨] (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

[١٤٩] (وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ)

[١٥٠] (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٥١] (وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ)

[١٥٢] (ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

[١٥٣] (قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ)

« فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » أى لطيف لين « وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ » أى بطرين . وقرئ (فرهين) وهو أبلغ . وقيل : فاره من (فَرُه) بالضم ، بمعنى حـــذق . وفَرِهٌ صفة من (فرِه) كفرح ، بمعنى أشِر وبطر « فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ » أى الذين سُحِروا حتى غلب على عقولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

[١٥٥] (قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[١٥٦] (وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٥٧] (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ)

[١٥٨] (فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٥٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٦٠] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[١٦١] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٦٢] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٦٣] (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٦٤] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٦٥] (أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٦٦] (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)

« مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ » أى نصيب من الماء « وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها « وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى لعظم ما تسيئون .

قال الزمخشرىّ : عظم اليوم لحلول العذاب فيه ، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب . لأن الوقت إذا عظم بسببه ، كان موقعه من العظم أشد « فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ » أى الموعود ، وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » أى مجاوزون حدّ الحكمة فى ترك محل الحرث ، الحافظ للنسل ، الذى به حفظ النوع البشرىّ ، وإيثار ما لم يخلق لذلك ، شرهاً فى الشهوة الحيوانية ، ومكالفة لتغيير الأوضاع الربانية .

ونقل السيوطىّ فى (الإكليل) عن محمد بن كعب القرظىّ ، أن معنى الآية : تذرون مثله من المباح . فاستدل بذلك على إباحة وطء الزوجة فى دبرها . انتهى .

وخالفه غيره . فاستدل بها على حظره . وبيانه كما فى (الكشاف) و(حواشيه) أنّ (مِنْ) إمّا تبيين لما خلق ، أو للتبعيض . ويراد به العضو المباح منهن ، تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم . ومن الوجه الثانى يستدل على حظر إتيان المرأة فى غير المأتى . وتقريره فى (الانتصاف) أن (مِنْ) لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج . ولاشك أن ترك الأزواج

مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده منكر. ولو كان الأمر كذلك، لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفصح أو المتعين. وقد اجتمعت العامة ـ عامة القراء ـ على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً. فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد. فتعين حمل (مِنْ) على البعضية. فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار: أحدهما إتيان الذكران. والثاني مجانبة إتيان النساء في المأتى، رغبة في إتيانهن في غيره. وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير. انتهى.

ومثله من دقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبواباً، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية في الملام لهم، أعمّ مما ذكره ومن غيره. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٦٧] ﴿قَالُوا۟ لَىِٕن لَّمۡ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِینَ﴾

«قَالُوا۟ لَىِٕن لَّمۡ تَنتَهِ یَـٰلُوطُ» أي عن تقبيح أمرنا «لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِینَ» أي من قريتنا عنفاً، إذ لا تجانسنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٦٨] ﴿قَالَ إِنِّی لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِینَ﴾

[١٦٩] ﴿رَبِّ نَجِّنِی وَأَهۡلِی مِمَّا یَعۡمَلُونَ﴾

«قَالَ إِنِّی لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِینَ» أي المبغضين غاية البغض. أي فأنا أرغب في الخروج عن دياركم، والراحة من مجاورتكم، لبغضي لعملكم، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار. ولذا أتبعه بقوله «رَبِّ نَجِّنِی وَأَهۡلِی مِمَّا یَعۡمَلُونَ» أي من شؤمه وغائلته.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ)

[١٧١] (إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ)

[١٧٢] (ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ)

« فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا » وهى امرأته . كما بينت فى آيات « فِى ٱلْغَٰبِرِينَ » أى مقدّراً كونها من الباقين فى العذاب . لأنها كانت راضية بعمل قومها .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) : كثيراً ماورد فى القرآن، خصوصاً فى هذه السورة ، العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة. ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع . كقول فرعون(١) (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) وقولهم(٢) (سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ) وقولهم(٣) (لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ) وقوله(٤) (إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ) وقوله تعالى(٥) فى غيرها (رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ) وكذلك(٦) (ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ) وأمثاله كثيرة . والسر فى ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل، إنما يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يُفهم أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة، كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به. كأنها لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان فى ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لاغير.

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٣٦] .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ١١٦] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٦٨] .
(٥) [٩ / التوبة / ٨٧] . (٦) [٩ / التوبة / ٨٦] .

وانظر إلى المساق وهو قوله (رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ) كيف ألحقهم لقبا رديئا، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام فى جميع مايرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره « ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ » أى أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ)

[١٧٤] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٧٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٧٦] (كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا »أى عظيما غير معهود، هلكوا به «فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ » وهم أهل مدين . ووهم من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون (مدين) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ماحوتها من الأيكة ، وهى الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة فى مكان واحد .

قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

تنبيه :

قال أبو عمرو : وكتب فى جميع المصاحف (ليكة) فى الشعراء و(ص) ، بلام من غير ألف قبلها. وفى الحجر وق (الأيكة) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة، من غير همز قبلها ولا بعدها . ونصب التاء غير منصرف . والباقون (الأيكة) بإسكان اللام وهمز

وصل قبله ، وهمزة قطع مفتوحة بعده ، وجر التاء . وحمزة وصلا ووقفا على أصله . وقراءة الأولين استشكلها أبو على الفارسىّ وغيره، بأنه لا وجه للفتح . لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضى تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح. أى فإن العرب تقول فى الأحمر (الحمر ولحمر) وإثبات الألف واللام فى (الأيكة) فى سائر القرآن يدل ـ كما قال الزجاج ـ على أن حذف الهمزة منها التى هى ألف الوصل ، بمنزلة قولهم (لحمَر) وقرئ (ليكة) بالجر على الإضافة فى غير السبع. لكن قال الزمخشرىّ : هو الوجه. ومن قرأ بالنصب ، وزعم أن ليكة، بوزن ليلة ، اسم بلد، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة (ص) بغير ألف. وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه . وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ. كما يكتب أصحاب النحو ـ لأن ولولى ـ على هذه الصورة، لبيان لفظ المخفف . وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل . والقصة واحدة . على أن (ليكة) اسم لا يعرف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٧٨] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٧٩] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٨٠] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ)

[١٨١] (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)

« إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ » أى أتموه « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ » أى حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ)

[١٨٣] (وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

«وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ »أى بالميزان السوىّ «وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ» أى لا تنقصوهم حقوقهم. قال الزمخشرىّ : وهو عام فى كل حق ثبت لأحد ، أن لا يهضم . وفى كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ، ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه ، إلا بإذنه تصرفاً شرعيًّا . «وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»أى بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٨٥] (قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ)

[١٨٦] (وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)

« وَٱتَّقُواْ » الله « ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى : وذوى الجبلة الأولين ، وهم من تقدمهم من الخلائق «قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ » أى فيما تدّعيه من النبوّة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٧] (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

[١٨٨] (قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » قطعا منها . قرىء (كسفاً) بسكون السين

وتحريكها . وكلاهما جمع (كسفة) « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الكفر والمعاصى ، وبما تستوجبون عليها من العذاب ، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم ، فإليه الحكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« فَكَذَّبُوهُ » أى فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى لحلول العقاب فيهم ، من جنس ما سألوه من إسقاط السماء قِطَعاً عليهم. فقد أظلتهم سحابة أطبقت عليهم ، وأظلمت الجوّ فوقهم ، وغشيهم العذاب وأحاط بهم . و (الظلة) بالضم لغةً ، الغاشية ، وما أطبق وستر من فوق .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق. ففى (الأعراف) ذكر أنهم[1] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ) وذلك لأنهم قالوا[2] (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) فأرجفوا نبىّ الله ومن اتبعه (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) وفى سورة هود قال[3] (وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ) ذلك لأنهم استهزؤوا بنبى الله فى قولهم[4] (أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ) قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء . فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ) وههنا قالوا (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ) الآية، على وجه التعنت والعناد. فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ). انتهى

---

(١) [٧ / الأعراف / ٩١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٨] .
(٣) [١١ / هود / ٩٤] . (٤) [١١ / هود / ٨٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٩١] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً » أى على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » أى الغالب على تعذيب من شاء بما شاء ، الرحيم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يكون للناس على الله حجة.

قال الزمخشرىّ : فإن قلت: كيف كرر فى هذه السورة، فى أول كل قصة وآخرها، ما كرر؟ قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه . وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها . فكانت كل واحدة منها تدلى بحق فى أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به . ولأن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس ، وتثبيتا لها فى الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديدها يراد تحفظه منها ؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلب، وأرسخ فى الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان . ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وُقْرٌ عن الإنصات للحق، وقلوب غُلْفٌ عن تدبره ، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير . لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتق ذهنا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . اهـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩٢] (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٩٣] (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ)

[١٩٤] (عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ)

[١٩٥] (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)

« وَإِنَّهُ » أى ماذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية ، أو القرآن المتضمن لها « لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى منزل منه حقا « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ » أى جبريل عليه السلام « عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ » أى منتظماً فى سلك أولئك المشهورين بتلك المزية الجليلة ، والمنقبة الفاضلة . وهى الرسالة الإلهية بالإنذار ، إزالة للأعذار « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » أى واضح المعنى جلىّ المفهوم ، ليكون قاطعا للعذر ، مقيما للحجة ، دليلا إلى المحجة . والجار متعلق بـ(نزل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٩٧] (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ » أى فى كتبهم . مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها ولم يدرسها . فكفى بذلك شهيدا على صدقه « أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً » أى علامة على تنزيله الحق « أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى فيجدون مصداقه فى زبرهم التى يدرسونها ، كما قال تعالى[1] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ)

[١٩٩] (فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ)

[٢٠٠] (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[٢٠١] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ)

(١) [٢٨ / القصص / ٥٣] .

[٢٠٢] (فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٢٠٣] (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)

[٢٠٤] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[٢٠٥] (أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

[٢٠٦] (ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ)

[٢٠٧] (مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[٢٠٨] (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ)

[٢٠٩] (ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ مُؤْمِنِينَ » أى ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعاجم الذى لايحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، انفتق لسانه بها ، خرقا للعادة ، لكفروا به كما كفروا . ولتمحّلوا لجحودهم عذرا . ولسموه سحراً ، لفرط عنادهم « كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى مكّنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به، فى قلوبهم وأنفسهم . وقررناه فيها « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى وهو ماهو ، عياذا به منه «أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ*ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ* مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » أى من طوال الأعمار وطيب المعايش « وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ » أى رسل ينذرونهم لأجل الموعظة والتذكرة « وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ » أى فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار ، فإن ذلك محال فى حكمة الحكم العدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ)

[٢١١] (وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٢١٢] (إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

[٢١٣] (فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » ردّ لمازعمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ماتلقيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ » أى الاستماع عن الملائكة « لَمَعْزُولُونَ » لانتفاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم ، لخباثة نفوسهم بالذات ، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية « فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ » فى الدارين ، عذاب تعديد الوجهة ، واضطراب الفكر ، وضعف الشبهة ، وتوهين العقل فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ)

[٢١٥] (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٢١٦] (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٢١٧] (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ)

[٢١٨] (ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ)

[٢١٩] (وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ)

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ » أى الأدنين . وإنه لايخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل. وقد قال عليه الصلاة والسلام[1] لما نزلت عليه: (يافاطمة ابنة محمد! ياصفية ابنة عبد المطلب ! يابنى عبد المطلب ! لاأملك لكم من الله شيئا . أنقذوا أنفسكم من النار) وقد بسط الأحاديث الواردة فى ذلك ، ابن كثير . فراجعه . وقوله تعالى « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى ليّن جانبك لهم. مستعار من حال الطائر. فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ* وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ* ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ » أى من النوم إلى التهجد « وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ » أى المصلين. أى تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود، إذا أممتهم . يعنى: يراك وحدك ويراك فى الجمع . والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلًا وجمعا وفرادى. أو معنى الآية: لايخفى عليه حالك ، كلما قمت وتقلبت مع الساجدين، فى كفاية أمور الدين . أو هى كناية عن رعايته صلوات الله عليه ، والعناية به . كقوله تعالى[2] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

[٢٢١] (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ)

[٢٢٢] (تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » أى لماتقوله وبما تنويه « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ » أى (تتنزل) وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد امتناع تنزلهم بالقرآن « تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » أى كذاب فى قوله ، يصرف الكلام من وجه إلى آخر ، ولا يبالى بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور فى فعله.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٦ ـ سورة الشعراء ، ٢ ـ باب وأنذر عشيرتك الأقربين، حديث رقم ١٣٢٠ ، عن أبى هريرة (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨].

وحيث كان المقام النبوىّ منزها عن ذلك ، اتضح استحالة تنزلهم عليه .

قال القاشانىّ : لأن تنزلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة فى الخبث والكيد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل. فمن تجرد عن صفات النفس، وترقى إلى جناب القدس ، وتنورت نفسه بالأنوار الروحية ومصابيح الشهب السبوحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) تقرير لقوله تعالى (وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَمَايَسْتَطِيعُونَ) لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ)

[٢٢٤] (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ)

[٢٢٥] (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

[٢٢٦] (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)

« يُلْقُونَ » أى الأفاكون « ٱلسَّمْعَ » أى إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم « وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ » أى فيما يتكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ » استئناف مسوق لإبطال ما قالوا فى حق القرآن الكريم ، من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادّة لأحواله عليه الصلاة والسلام. والمعنى أن الشعراء

الذين يركبون المخيلات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنهم يتبعهم (أى يجاريهم ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم) الغاوون الضالون عن السنن ، لاغيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليه . قاله أبو السعود .

وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ » استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون، وتقرير له. أى ألم تر أنهم فى كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم، لا يقفون عند حدّ معيّن ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . ديدنهم الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسيب[1] بالحرم والغزل والابتهار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلوّ فى الثناء والهجاء .

لطيفة :

فى ذكر الوادى والهيام ، تمثيل لذهابهم فى شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن الأثير : استعار الأودية للفنون والأغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها ـ لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

« وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » أى مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم . أى فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم ، من تنزّهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات

(١) النسيب: ذكر محاسن الحسان، وإظهار التعشق والهيام بها. والغزل: التغزل وذكر صفات النساء، وذكر الميل لهن. والابتهار: الكذب بادعاء الوصول إلى محبوبته. اهـ. خفاجى.

الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وفاز بجملة الملكات الأنسية ، مستقرًّا على المنهاج القويم ، مستمرًّا على الصراط المستقيم، ناطقاً بكل أمر رشيد، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائق ، أعجز كل منطيق ماهر ، وبكّت كل مفلق ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدًّا . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ـ على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد[1] فى (الطبقات) والزبير بن بكار فى كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عَدِيّ بن نَضْلة على مَيْسان، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَحْنُو عَلَى كُلِّ مَبْسِمِ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي ... وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال: إى والله! إنه ليسوؤنى ذلك . ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه عمر (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ) . أما بعد فقد بلغنى قولك :

لعلَ أميرَ المؤمنين يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا بالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات، بالصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الرابع (طبعة بيروت) فى ترجمة عدىّ بن نضلة .

وايم الله ! إنه ليسوؤنى ذلك . وقد عزلتك) .

فلما قدم على عمر . بكّته بهـــذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ماشربتها قط . وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك . ولـكن ، والله ! لاتعمل لى عملا أبدا ، وقد قلتَ ما قلتَ .

فلم يذكر أنه حدّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولـكن ذمّه عمر ولامه على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشرىّ عن الفرزدق[1] أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَبِتْنَ بِجَانِبَىَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحدّ . فقـال : ياأمير المؤمنين ! قد درأ الله عنى الحدّ بقوله (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ) .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٧] (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ، وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ، وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ)

« إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا » أى فى شعرهم ، بأن كان غالبه فى توحيد الله والثناء عليه والحـكمة والموعظة والآداب الحسنة « وَٱنتَصَرُواْ » أى بشعرهم على عدوّهم بأن هجوه « مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ » أى فـكان هجاؤهم على سبيل

---

(١) انظر فى ديوانه الصفحة ٨٣٥ قصيدته فى مدح هشام بن عبد الملك ، ومطلعها :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

الانتصار ممن يهجوهم ، جزاءً وفاقاً . قال الله[١] (لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ) وقال تعالى[٢] (فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) قال ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان[٣] : (اهجهم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك) ويروى الإمام أحمد[٤] عن كعب بن مالك أنه قال للنبىّ ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل فى الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبىّ ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذى نفسى بيده ! لكأن ما ترمونهم به نضح النبل .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) الآية ، ذم الشعر ، والمبالغة فى المدح والهجو وغيرهما من فنونه ، وجوازه فى الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزمخشرىّ عن عمرو بن عبيد ، أن رجلا من العلوية قال له : إن صدرى ليجيش بالشعر . فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام .

الثانى ـ ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ يبكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل

---

(١) [٤ / النساء / ١٤٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث رقم ١٥١٧ ، عن البراء .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ)

هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبيّ ﷺ (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) قال : أنتم .

قال ابن كثير: لكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات فى شعراء الأنصار ؟ وفى ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مرسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحا ، وذكر الله كثيرا ، فى مقابلة ما تقدم من الكلام السيء . فإن الحسنات يذهبن السيئات. وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كان يذمه . كما قال[1] عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ، لما أسلم :

يارسولَ المليكِ إنّ لسانى ... رَاتِقٌ مافتَقْتُ ، إذْ أنَا بُورُ
إذْ أُجارِى الشيطانَ فى سَنَنِ الغَىّ ... وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبيّ ﷺ فهو ابن عمّه وأكثرهم له هجوا . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ . وكان يمدح رسول الله ﷺ. انتهى. وقوله تعالى « وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » تهديد شديد ووعيد أكيد، لما فى (سيعلم) من تهويل متعلقه. وفى (الذين ظلموا) من إطلاقه وتعميمه . وفى (أى منقلب ينقلبون) من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ)